

286166 - طلب الوسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم ، لا يناقض الإيثار المندوب إليه

السؤال

قال رسول الله : (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ، ثم صلوا علي ، وسلوا الله لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لرجل واحد ، أرجو أن أكون أنا هو) ، فهل كان رسول الله لا يعلم أنها خاصة به ؟ وإذا كان يعلم فلماذا قال أرجو أن تكون لي ؟ وإذا كان لا يعلم فلماذا تمنى الرسول أن تكون له دون باقي الأنبياء أو البشر ، فرسول الله كان يعلمنا دائما إيثار النفس ؟ فعندما قرأت الحديث شعرت أن تمنى الدرجة له ليس بها إيثار ، مع العلم اني أعلم أنها لا تنبغي إلا له ، ولكن يوسوس لي الشيطان أن رسول الله تمنى لنفسه ، وذلك ليس فيه إيثار كما كان يعلمنا .

الإجابة المفصلة

أولاً :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّقَاعَةُ) رواه مسلم (384).

فبين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث معنى "الوسيلة" ، وأنها منزلة خاصة في الجنة، وخصوصيتها واسمها يشيران إلى أن صاحبها أقرب إلى الله تعالى من غيره.

قال ابن الأثير رحمه الله تعالى:

" (الْوَسِيلَةَ) هي في الأصل: ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به، وجمعها: وسائل. يقال: وسل إليه وسيلة، وتوسل. والمراد به في الحديث القرب من الله تعالى " انتهى، من "النهاية" (5 / 185).

وقال الطيبي رحمه الله تعالى:

" وإنما سميت تلك المنزلة من الجنة بها [= أي : بالوسيلة] ؛ لأن الواصل إليها يكون قريباً من الله تعالى ، فائزاً بلقائه، مخصوصاً من بين سائر الدرجات بأنواع المكرمات " انتهى من "شرح المشكاة" (3 / 911).

والسعي إلى القرب من الله تعالى ونيل رضوانه ومكرماته : لا يشرع فيه الإيثار، بل أمر الله تعالى بالتنافس فيه أشد التنافس، وإنما الإيثار يكون بمتاع الدنيا، وليس بمقامات الجنة، والقرب من الله تعالى؛ لأن الإيثار في مثل هذا يشعر أن صاحبه ليس له حرص على القرب من الله تعالى، وهذه منقصة لا تليق بذي همة عالية؛ فكيف بالرسول صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَحْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكَ * فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين/ 22 - 26).

وقال الله تعالى: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الحديد/21).

قال الزركشي رحمه الله تعالى:

” الإيثار: أن يؤثر غيره بالشيء، مع حاجته إليه ...

والإيثار ضربان: ...

(الثاني): في القربات، كمن يؤثر بالصف الأول لغيره، ويتأخر هو، أو يؤثر بقربه من الإمام في الصلاة ونحوه. وظاهر كلام الشيخ أبي محمد السابق: أنه حرام، وكذا قال الإمام في باب التيمم: لو دخل الوقت، ومعه ما يتوضأ به، فوهبه لغيره ليتوضأ به: لا يجوز؛ لأن الإيثار إنما يكون فيما يتعلق بالنفوس والمهج، لا فيما يتعلق بالقرب والعبادات، وقال في باب زكاة الفطر: لا أعرف خلافاً في أنه ليس له الإيثار.

وقال الشيخ عز الدين في “القواعد”: “لا إيثار في القربات”؛ فلا إيثار بماء التيمم، ولا بالصف الأول، ولا بستر العورة في الصلاة؛ لأن الغرض بالعبادات التعظيم والإجلال، فمن أثر به فقد ترك إجلال الإله وتعظيمه، فيصير بمثابة من أمره سيده بأمر، فتركه، وقال لغيره: قم به، فإن هذا يستقبح عند الناس بتباعده من إجلال الأمر وقربه.”

انتهى من “المنتور في القواعد” (210-1/212).

وأما الإيثار بمتاع الدنيا، فإنه يشعر بأن صاحبه معرض عن الدنيا، غير منافس فيها، وهذا أمر محمود، لأن التنافس عليها يؤدي إلى الهلاك.

عن عمرو بن عوف الأنصاري، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَحْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَحْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتُهُمْ) رواه البخاري (3158)، ومسلم (2961).

قال القرطبي رحمه الله تعالى:

” وقوله : (رحمة الله علينا وعلى موسى) ؛ قال الراوي : وكان إذا ذكر أحدًا من الأنبياء بدأ بنفسه. هذا إنما كان يفعله النبي . صلى الله عليه وسلم . في الأدعية وأشباهاها ، مما يعود عليه بالثواب والأجر الأخروي ، حرصًا على تحصيل المنازل الرفيعة عند الله تعالى ، كما قال في الوسيلة : (إنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو) .

وحاصله : أن القرب من الله تعالى ، وثوابه : ليس مما يُؤثر الغير به ، بل تنبغي المنافسة فيه ، والمسابقة إليه ، بخلاف أمور الدنيا ، وحظوظها؛ فإنَّ الفضل في تركها، وإيثار الغير بما يحوز منها ” انتهى من ” المفهم ” (6/206) .

فالحاصل .. أن كون الرسول صلى الله عليه وسلم يرجو أن يكون هو أقرب الناس إلى الله تعالى ، شيء محمود بلا شك ، ويدل على شدة محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل ، ولا يشرع الإيثار في شيء من ذلك أصلاً .

ثانياً :

أما .. هل كان يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذه المنزلة العالية له أم لم يكن يعلم ذلك ؟ فلم نقف على شيء من روايات الحديث وألفاظه تبين ذلك .

وقد ذكر العلماء الاحتمالين .

فقد ذكر بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم ذلك ، ولهذا أخبر عن رجائه أن يكون هو صاحب تلك المنزلة .

قال القرطبي رحمه الله في ” المفهم ” (4/100) :

” وقوله : (وأرجو أن أكون أنا هو) : قال هذا صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبان قوله له بأنه صاحبها ، إذ قد أخبر أنه يقوم مقامًا لا يقومه أحد غيره ، ويحمد الله بمحامد لم يُلهمها أحد غيره .

ولكن مع ذلك فلا بد من الدعاء فيها ؛ فإن الله يزيده بكثرة دعاء أمته رفعة ، كما زاده بصلاتهم ، ثم إنه يرجع ذلك عليهم بنيل الأجور ، ووجوب شفاعته صلى الله عليه وسلم ” انتهى .

وذكر آخرون أنه كان يعلم ذلك ، ولكنه أخرج الكلام في صورة الرجاء ، تواضعًا منه صلى الله عليه وسلم .

قال الملا علي القاري في ” مرعاة المفاتيح ” (2/559) :

“وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ) : قَالَ تَوَاضَعًا ; لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ أَفْضَلَ الْأَنَامِ، فَلِمَنْ يَكُونُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرَ ذَلِكَ الْهَمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ ” انتهى .

والله أعلم.